

هابرماس بين الإنسانية المعلنة والقومية الخفية

الباحث: خليفة محمودي¹

إشراف: أ. د منير بهادي

جامعة وهران 2

Abstract

The theory of the communicative act of the German philosopher Jürgen Habermas is one of the greatest contemporary philosophical theories. Which tried to defend human values in order to establish the necessary conditions for a healthy living among members of one society through communication, which combines the effectiveness of discussion and pilgrims, in order to create a transparent discourse? But this philosophy was criticized, as it was not a philosophy with a real human dimension, but the will of repentance, for the introduction of Jews in society again, what is the reality of this proposition?

Keywords: Communication, Jürgen Habermas, modernity, western society, contemporary philosophy.

مقدمة

لقد كثر تداول استعمال العديد من المصطلحات في الحقل الفلسفي المعاصر، حتى أضحت أكثر غموضاً وحيرة، وأن كثرة استعمالها لا يعني أن معانيها واضحة ومستقرة ومفهومة، ومن بين ما اشتهرت به الفلسفة المعاصرة هي الدعوة للإنسانية، سواء العودة إلى الذات الإنسانية أو ما تعرف بفلسفات الذات، أو العودة إلى الإنسانية الكونية التي تتجاوز الذات والحدود والقومية.

وعندما نتناول هذا المجال النقدي يراودنا الشك والحيرة وذلك لتداخل مجالاته الفكرية والمعرفية، ولا سيما عند فيلسوف مازالت فلسفته تشع نظارة ووجاهة، زاهرة بمختلف المفاهيم مثل الفعل التواصلي وإيتيقا النقاش المجال العام والحق... إلخ، ذلك هو الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس² الذي عاش في

¹ - خليفة محمودي، طلب دكتوراه قسم الفلسفة جامعة وهران 2، عضو بجنر الفلسفة وتاريخها.

² - يورغن هابرماس: فيلسوف ألماني ولد عام 1929 في مدينة دولسدورف، وهو من فلاسفة الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت، يعد هابرماس عنصراً أساسياً مما يسمى نادي الخمسة، قادته فلسفته المهمومة بالإنسان للانتقال إلى مواقع

زمن بلغ الاضطراب أوجه، فقد عاش حريين عالميتين قضت على الإنسان والإنسانية، كما عاش التوتر الذي ساد العالم أثناء الحرب الباردة، والرعب الذي حملته هذه الفترة نتيجة امتلاك أسلحة الدمار الشامل التي كانت تهدد العالم، نتيجة وجود قطبين متصارعين، كما عاصر أعنى الأنظمة الاستبدادية والمتمثلة في النازية، حتى انعكس ذلك على تعريف نفسه، حيث نجده يعرف نفسه بأنه من جيل المثقفين الألمان الذي كبروا في حقبة النازية وبلغوا الرشد في نهاية الحرب العالمية الثانية.

كل هذا دعى بنا للعودة إلى فلسفة هابرماس لمعرفة إذا كانت فلسفته، أي - نظرية الفعل التواصلي - هي فلسفة إنسانية بمعنى الكلمة ووجهت لخدمة الإنسان؟، أو أن فلسفته كانت بدافع شخصي؟، لأنه كان يهودي الأصل وحديثه عن هذا التواصل كان من أجل دمج اليهود في المجتمع من جديد وتخليصهم من الاضطهاد، فهل كانت فلسفة هابرماس فلسفة ذات بعد إنساني؟ أم إنها إرادة توبة؟.

1 - الفعل التواصلي كفاعلية إنسانية.

لقد أعلن الرواد الأوائل لمدرسة فرانكفورت هوركهايمر وأدورنو حربا ضروسا ضد العقلانية الحديثة، وعصر الأنوار وخاصة في كتابهما "جدل التنوير" حيث اعتبر هوركهايمر وأدورنو أن العقلانية التي نادى بها فلاسفة النوار، بدلا من أن تكون في خدمة الإنسانية كانت سجن لها، وبدلا من أن تنقذ الإنسان من الأسطورة كما هو شائع أوقعته في فخ الأسطورة من جديد، وذلك بسبب العقل الأداتي، وبسببه قد انحرفت مسيرة العقل التنويري من طارد للأسطورة إلى جاذب لها "لكن الأساطير ضحايا التنوير، لم تكن سوى من إنتاج التنوير عينه... إذ صارت المعلومة التي تحملها في طياتها، بمثابة معتقد". (هوركهايمر، أدورنو، 2006: 28). هكذا يفني التنوير ذاته بذاته ويتحول من مشروع التحرر الإنساني الذي يحمل شعلته المضئية إلى ظلام دامس، ينتفي بقيد العقل الأسطوري التنويري الجديد المتجلى في العقل الأداتي.

لم يقف عند هذا الحد فقط، بل يزعم هوركهايمر وأدورنو أن العالم الحديث الصناعي والبيروقراطي والانتهازي تشكل بفعل عملية العقلنة التنويرية "إن العالم الاجتماعي للقرن العشرين هو نتاج أفعال البشر الذين أصيبت ملكة تفكيرهم بالضمور حتى أصبحت مجرد حساب لأكثر السبل فاعلية لتحقيق غاية ما". (فينيلسون، 2010: 24). إنه العقل الأداتي، الذي يقوم على التكميم والحساب والقياس الموجه نحو النفعية والربحية العملية البحتة، قد قضى على الإنسان وإنسانيته، حتى أصبح الإنسان مجرد حساب

التزاع بنفسه، إلى إيران والمشرق العربي وألبانيا وغيرها، بدأ أكاديميا فلسفيا، تحصل على الدكتوراه في الفلسفة، له العديد من المؤلفات: أشهرها نظرية الفعل التواصلي، التي أكسبته شهرة.

لأدق التفاصيل أو شيء في الطبيعة، إن هذا العقل الأداتي وكذلك التشاؤم الغير مبرر من الرواد الأوائل، قد دفع الغاية النقدية عند هابرماس، واستدعى منه نحت عقل جديد اصطلاح عليه العقل التواصل، وقبل الخوض في هذا يجب أن نعرف مفهوم التواصل، وخاصة أن هذا المفهوم يلامس حقول معرفية متعددة مثل السيكيولوجيا والأنثروبولوجيا والسميائيات والتداولية والألسنية والنظرية النقدية، وهذا كله، يحتم علينا أن نحدد معناه؟.

إن التواصل "هو جعل الشيء مشتركاً، أي الانتقال من حالة فردية إلى حالة جماعية أو اجتماعية عبر الفعل اللازم إتصل الذي يتضمن من بين ما يتضمن الإخبار الابلاغ والتخاطب، كما يقوم بنقل الرسائل والرموز المحملة بالدلالات، والمملوءة بالإيحاءات... ثم عن التواصل بما هو نشاط تبادلي وعلائقي فإنه يتم بصور شتى كالأصوات والصور، لكن التواصل اللغوي يبقى أرقى أنواع التواصل". (هابرماس، 2010: 8). وهذا يعني أن التواصل ذات صيغة جماعية يهدف إلى الوصول إلى الإتفاق بين المتحاورين، وذلك عن طريق الحوار والنقاش وهذا النقاش يكون بين ذاتين قادرتين على الكلام، وفق منطق اللغة التي تكون بين ذاتين ويصبح التواصل وفق هذا المنطلق هو الذي يحدد العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وفق مبدأ المناقشة الشفافة.

فأخلاقيات النقاش هي شرط الاجماع الذي يهدف إلى التواصل، وهابرماس يسعى إلى جعلها نظرية تبحث في الطرق السليمة لتواصل بين الأفراد مهما كان نوعهم أو لغتهم أو هويتهم أو دينهم، عبر الحوار الذي صاغ تلك المعايير الأخلاقية، ويغدو معها التواصل القائم على إتيقا النقاش تواصل كوني بين الذات والأفراد، مهما كان اختلافهم إنه تواصل ذات أبعاد إنسانية أو عالمية، ويقول هابرماس في هذا الصياغ "وعلى النقيض من ذلك فقد حاولت في إطار نظرية الفعل التواصل ارساء معقولة سلوكية مفادها: أن شخصا معينا، ومهما يكون محيطه الاجتماعي ولغته وشكل حياته الثقافية، فإنه ليس بمقدوره عدم الانخراط داخل الممارسة التواصلية ومن ثمة لن يكون بمقدوره كحصلة أن لا يبدي اهتماما ببعض الافتراضات التداولية نعتقد بأنها ذات منحى عام... التي يجد الأفراد أنفسهم منخرطين فيها دون أن يدركوا بأنهم يشاركون في ممارسات ثقافية حقيقية". (هابرماس، 2010: 30). ومن هنا يغدو التواصل لازم الافتراض إذ لا تواصل سليم بدونه، وتصبح إتيقا النقاش عامة وكلية لأي شخص يدخل في هذه الممارسة التواصلية.

كما أن المتابع لفلسفة هابرماس لا يعبأ أن يلاحظ، أن اللغة عنده تشكل الأداة أو الوسيلة للتواصل بما توحيه من امكانية نقد ووضع المعايير، لأنها تمثل فحوى التواصل ومادته بل يذهب هابرماس

إلى أكثر من ذلك، عندما يؤسس مفهوم العقلانية على أساس اللغة حيث يقول هابرماس "إن ما نسميه عقلانية هو أولاً الاستعداد الذي تبهن عليه ذوات قادرة على الكلام". (هابرماس، 1995: 482). فتواصل كما نظر إليه هابرماس "ينظر إلى اللغة في بعدها البراغماتي فهو يعنى اللغة وهي منقسمة في تيار الإبداع والإنتاج، ولكن ماهي حقيقة هذا الإنتاج ومضمونه؟ يجيب هابرماس بصرامة واختصار إنه التفاهم أو الوفاق". (مهيل، 2005: 363). وعليه فإن مفهوم التواصل بمعناه الخام والذي استلهم من الفعل التواصل دعائم بقاءه ووجوده ليس بمعزل عن اللغة "بل إن اللغة والتواصل هما العاملان الحاسمان في الواقع". (مقورة، 2013: 85).

كما جعل هابرماس الغاية من التواصل، هو بلوغ التفاهم بين مختلف الذوات المشاركين في التواصل والحوار، وهذا التفاهم يكون عن طريق المحاجة، وهذه المحاجة قائمة حسب هابرماس على ضوابط أخلاقية ومنطقية تحدد فاعليتها في الحوار، وليست اعتبارية فهذا التواصل مقترن بمدى قوة المحجة التي يقدمها المشارك في التواصل، لذا يتوجب حسب هابرماس إذا أردنا "الانخراط في محاجة جادة إلى قبول ضمنا بمبدأ إيتيقي، مفاده أنه ينبغي إخضاع أي نزاع أو خلاف يقع بين الذوات المنطوقة في نقاش ما إلى حجج محددة". (آتو أبل، 2005: 19). وعليه فإن الحجج حسب هابرماس يقوم على مبادئ أخلاقية يصطلح عليها هابرماس كما قلنا إيتيكا النقاش.

كما يهدف الحجج حسب هابرماس إلى بلوغ الإجماع، وتجاوز الصراع، سوء التفاهم الذي قد يحدث أثناء النقاش، وذلك باقتراض حسن نية أصلية تتمثل في "حجج محددة يكون هدفها الأساسي بلوغ الإجماع". (آتو أبل، 2005: 19)، حيث يقول هابرماس في هذا الصدد: "إن المناقشة العملية التي تركز على الظهور بما هي مسار للفهم البنداتي التي وبحسب شكلها ذاته، أي تحديدا وفق قاعدة الاقتراضات، الشمولية الكلية للمحاجة التي لا يمكن مجاوزتها". (فيرى، 2006: 181). فالحجج حسب هابرماس غايته الأساسية هو بلوغ الإجماع والكليّة، ومن ثمة بلوغ مجتمع إنساني غايته بلوغ التفاهم بين مختلف الناس والشعوب.

وانطلاقا من هذه المضامين التي يعتمد عليها التواصل، والمتمثلة في أخلاقيات النقاش وكذا الحجج واللغة السليمة، تغدو معها نظرية الفعل التواصل ذات بعد إنساني حقيقي يسعى إلى خدمة الإنسان والإنسانية في كل مكان وفي أي منطقة جغرافية كانت.

2 - المجال العام من حيز البرجوازية إلى متسع الديمقراطية.

إن المتتبع للفضاء العمومي كمصطلح، سيجد أنه لم يستعمل إلا مع هابرماس وذلك من خلال أطروحته التي نشرت تحت عنوان "الفضاء العمومي اركيولوجيا الدعاية باعتبارها مكونا بنيويا للمجتمع البرجوازي" لكن كفكرة ظهرت مع الفيلسوف الألماني كانط ذلك الفيلسوف الذي اعتبره فيلسوف الإنسانية قاطبة، إنه فيلسوف الإنسانية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، "ولكن حسب هابرماس فالمنظر الحقيقي للفضاء العام العمومي، هو الفيلسوف الألماني كانط في مقاله التأسيسي ما التنوير". (علوش، 2013: 68، 69). حيث أعطي كانط بعد آخر لتنوير، حيث يصبح هذا الأخير هو خروج الإنسان من الوصاية، واستعمال عقله بكل حرية وبدون تدخل أي عامل خارجي، إنه استعمال العقل بمعقولة وهذا التحرر لن يكون شأنًا فرديًا بقدر ما هو شأن جماعي، وهذه الأخيرة هي مسعى هابرماس الدؤوب.

يري هابرماس أن الرأي العام تشكل من لحظة تاريخية برجوازية، حيث كان توطيد الحقوق المدنية من حرية التعبير للأفراد، وبداية ظهور الصحافة مما أدى إلى ظهور منتديات يجتمع فيها الناس طوعية ويشاركون أندادا في الحوار، إلا أن هذا الفضاء العام البرجوازي حسب هابرماس بقي هو الأخر حبيس نخبة معينة من الناس وهم أبناء البرجوازيين، وليس عامة الناس بل الفئة الكبيرة من الناس مهمشة، وعليه فإن الفضاء العام البرجوازي الذي كان ينادي بالانفتاح والمساواة والحرية في الآراء "كأفكار لا تقرها الشبهات، لكنها في الواقع محض ايدولوجيات أو أوهام، وذلك لأن المشاركة في الفضاء العام الموجود في المقاهي والصالونات والدوريات الأدبية في أوروبا القرن الثامن عشر نظريا، طالما كانت حكرًا على مجموعة صغيرة من الرجال المتعلمين الأثرياء، وكان الثراء والتعليم شرطي المشاركة الضمنيين، والواقع أن السواد الأعظم من الفقراء وغير المتعلمين، وجميع النساء تقريبا كانوا مستبعدين من الفضاء العام". (فينيليسون، 2010: 28). وعليه فإن فكرة الفضاء العام في هذه الفترة حسب هابرماس ظلت طوباوية، وبقيت تعبر عن مصالح مجموعة معينة.

ومزاد الطين بلة وقوض من تشاؤم هابرماس هو تطور المجلات والصحف، حيث بدأ الفضاء العام في التفكك والتدهور، حيث أصبح الفضاء العام مجرد ساحة للمعارك الرومانية القديمة، يتم فيها توجيه الرأي العام حسب مصالح جهة معينة، أي التي تمتلك الشركات الإعلامية العملاقة وتعمل على مصالح خاصة لأطراف محددة.

وانطلاقاً من هذه المساوئ التي لحقت الفضاء العام، وانطلاقاً من تشخيص هابرماس لها حاول تخلص الفضاء العام من هذا كله، معولاً على التبدل السوسيولوجي الذي يشمل جميع الناس والمواطنين، ويصبح الفضاء العام البعد السياسي للديمقراطية ذات صبغة جديدة، وتعود إليه خاصية النقد من جديد، وكأن هابرماس يعود من جديد إلى الفضاء العام الكانطي لكن في ثوب جديد فقط.

3 - تجاوز مفهوم الدولة نحو مواطنة عالمية (الدولة ما بعد القومية وما بعد علمانية).

يقول هابرماس: "من الأفضل أن نكون حذرين إزاء اليوتوبيا الرجعية الانقلابية وكذا إزاء اليوتوبيا التي تخطط لمشاريع انفتاحية، إن ما هو مفروض في رأيي، على العكس من ذلك هو أن نولي اهتمامنا لهذا التوازن الخاص بين الانفتاح والانغلاق الذي ميز المراحل السعيدة نسبياً لتاريخ الحداثة الأوروبية، لا يمكننا أن نتصدى لتحديات العولمة بصورة عقلانية إلا إذا استطعنا أن نطور في المجرة ما بعد وطنية عدداً من الأشكال الجديدة للتنظيم الذاتي الديمقراطي للمجتمع". (رح، 2011: 137). وعليه يمكن حسب هابرماس تطوير هذه الأشكال التنظيمية الجديدة وتجاوز مفهوم الدولة إلى مواطنة عالمية، يمر بإرساء نظام كوسموبوليتي قائم على المساواة والحرية وحقوق الإنسان.

والسبب الذي دعا هابرماس إلى ضرورة تعميق الشعور إلى ما بعد وطني، أو المواطنة العالمية إن صحة العبارة، ذلك بسبب التطور المهم الذي حدث في العالم من خلال ظهور العولمة وكذا أحداث الحادي عشر من أيلول، ذلك أن الأحداث الوخيمة التي تعرض لها العالم بعد هذين الحدثين، دعا بهابرماس إلى تجاوز المفهوم الضيق للدولة الحدودية إلى الدولة العالمية، وهذا ما يعبر عنه هابرماس بالمواطنة الدستورية، التي تتجاوز المفهوم العرقي والقومي للمواطنة، وتصبح المواطنة قائمة على مفاهيم عالمية إنسانية مشتركة ومعايير أخلاقية شاملة، وعليه نجد هابرماس قد أعطى بعد جديد للمواطنة ليس كما انحدر إلينا من التاريخ الفلسفي، وإنما القول بالمواطنة العالمية والتي لها أبعاد كانطية من خلال مشروع السلام الدائم الذي يؤكد فيه كانط على المواطنة العالمية أو الكونية، غير أن هذه الكونية كانت قائمة عند كانط على فكرة الواجب والضمير أو الاحترام، وعند هابرماس قائمة على أساس التواصل والنقاش الشفاف والحجاج، وهذا هو البعد الجديد الذي أضفاه هابرماس على المواطنة العالمية أو الكونية أو الكوسمومواطنة.

ويرى هابرماس أن هذين الحدثين العولمة وأحداث العاشر من أيلول، قد نتج عنهما اتساع الهوة بين العلمنة والدين، أو بين المجتمع العلماني والمجتمع الديني واحتدام الصراع بينهما يقول هابرماس: "حيث تثقل الأحداث اليومية كاهلنا إلى حد لا يترك لنا خيار فيما يجب علينا أن نتكلم عنه، يصبح الإغراء

كبير الآن... لنعلم من سيستل سيفه أولاً، فحتى وقت قريباً كان ما اختلف فيه العقول هو ما إذا كانت التقنيات الوراثية ستخضعنا إلى الأدوات الذاتية... إن المقدمات التي تحكم هذه الأطروحة قد أثارت صراعاً بين قوى الإيمان، بين ممثلي العلم المنظم وممثلي الكائنات... حتى كان الحادي عشر من أيلول، حيث كان انفجار التوتر بين المجتمع العلماني وبين الدين انفجاراً من طبيعة أخرى". (هايرماس، 2006: 123). فيري هيرماس أنه يجب أن نتجاوز الصراع بين العلمنة والدين، إلى حياة أخرى في مجتمع آخر يصطلح عليه هيرماس بالمجتمع ما بعد علماني، لأن هذه المجتمعات المعاصرة حسب هيرماس معقدة أكثر من كونها علمانية.

ولتخطي هذه الأزمة يعود هيرماس من جديد إلى إعطاء الفلسفة دور في التوفيق بين العلمنة والدين، من خلال التفكير العقلي الصحيح الذي بات الحل الوحيد من خلال نشر ثقافة التسامح والقبول بالتعددية حيث يقول هيرماس: "إن نقطة الانطلاق بالنسبة للخطاب الفلسفي حول العقل والدين، وهو شكل من أشكال التفكير الذي يطفوا باستمرار على السطح هو: يكشف العقل في عمقه العميق أصله في جذور مغايرة له". (هايرماس، راستنغر، 2013: 56). فعلى الفلسفة أن تولي الاهتمام للصراع الذي يحدث اليوم بين الدين والعلمنة في هذا المجتمع المعقد التركيبة.

وحيث يشخص هيرماس هذه الأزمة، يرى الحل في العقلانية التواصلية فيقول: "الأرثوذكسيات المتحجرة في الغرب كما في الشرقين الأدنى والأوسط، واليهود كما بين المسلمين، وإذا كان علينا أن نتحاشى حرب حضارات، فعلينا أن نتذكر سيرورة علمائتنا الغربية التي لم تكتمل جدلياً، ما يعبر عنه بالإرهاب ليس إلا صدمة مشؤومة بطبيعتها المكبوتة بين عوالم تستعد، فيما يتجاوز العنف الأخرس عنف الإرهابيين والصواريخ لتطوير لغة مشتركة... وفي المرحلة التي نحن فيها لم يعد لنا إلا الأمل بحيلة العقل، وإن بات علينا أن نظهر قدرة التفكير". (هايرماس، 2006: 124، 125). ومعنى هذا أن الحل حسب هيرماس يكمن في الاستعمال الجيد للعقل، والتفكير دون إهمال أي طرف من المعادلة سواء الجانب الديني أو الجانب العلماني، وعليه فهيرماس يدعو إلى العودة إلى استعمال العقل أو بالأحرى الفلسفة للخروج من هذا المآزق الدموي أو العنف الذي وصلت إليه المجتمعات المعاصرة سواء من طرف تسلط الدولة باسم العلمانية، أو الجماعات الدينية المتطرفة باسم الدين، وذلك بتجاوز الطرفين معا والذهاب إلى النظام الديمقراطي التشاوري القائم على النقاش والحوار والمحاجة.

4 - القومية الخفية (اقتراض وجود سوء نية أصلية).

كل دارس لهابرماس لا يخفى عليه أنه من أصل يهودي، وأن هابرماس من خلال يهوديته هذه قد أصيب بعناء كبير في حياته التي عاشها في ألمانيا وباقي مختلف مناطق العالم وخاصة ما تعرض له مفكري مدرسة فرانكفورت على يد النازية، وتصاعد حكمها على يد هيتلر، ولم يتوقف هذا العداء لليهود في ألمانيا فقط بل وصلت النازية اضطهادهم حتى في دول أخرى كما حدث في سويسرا مثلاً، وهابرماس ليس بعيداً عن هذا الاضطهاد، فقد عانى هو الآخر من هذا الاضطهاد.

لهذا نجد حديث هابرماس عن التواصل والفعل التواصل، لم يكن إلا من أجل إعطاء فرصة لليهود لدخول في الحوار كأطراف يتم الاعتراف بهم كفاعلين في المجتمع بعدما كانوا مضطهدين وغير معترف بهم، على الأقل في حقبة النازية في ألمانيا آنذاك وبالتالي فإن حديث هابرماس عن التواصل كان إرادة توبة لا غير، من أجل حفظ مكان اليهود وكلمتهم في المجتمع المعاصر.

وهناك من يذهب إلى أبعد من ذلك، وهو أن حديث هابرماس عن المجتمع ما بعد علماني وتجاوز هابرماس للدولة أو الأمة نحو مواطنة عالمية، يرجع إلى عوامل ذاتية نتيجة التجربة المريرة التي مر بها هابرماس، وذلك من خلال خوف هابرماس من عودة شبح القومية الألمانية " لهذا السبب كان وراء رد فعله (هابرماس) هذا إرادة عميقة لتجاوز مبدأ القومية بطريقة تسمح بالإخطار عن كل انبعاث تجيدي للهوية أو كل تقوقع على الخصوصية الثقافية... بالنسبة لهابرماس يجب إعادة بناء الهوية الألمانية على أن تكون ضد التمجيد القومي (النازية)". (رحم، 2011: 144). وعليه يري هابرماس بضرورة فصل الممارسة السياسية عن الاعتبارات العرقية والثقافية، من أجل تفادي انبعاث جديد لأي شكل من أشكال القومية المزعومة، وهذا ما دفع بالبعض إلى الحكم على المواطنة الدستورية لهابرماس أنها غير بريئة وأنها لا تصلح إلا للمجتمع الألماني، فهي في نهاية المطاف صياغة نظرية تبحث في علاقة الشعب الألماني بهويته وانتمائه.

ولكن وفق هذا التحليل قد نتساءل من جديد عما إذا كانت الوطنية الدستورية والبعد التواصل لها لا يغدو أن يكون شكل جديد من القومية، التي تستضل تحت شعار التواصل والإنسانية، تحت مكر خفي؟ سيجيبنا عن هذا "الباحث الكندي ستيفان كورتوا بالنفي، في تحليله لهذا المفهوم على ضرورة اعتبار الوطنية الدستورية كتجاوز جذري للقومية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبارها شكلاً من أشكالها... وذلك في نقطتين: الأولى هي أنه ليس لها تجذر قومي ولا حدود وطنية إنها ترتكز على مبادئ الأخلاق والعدالة ذات التوجه الكوني، أما النقطة الثانية وهي نتيجة منطقية تنفرع عن الأولى، فتتمثل

في كون الوطنية الدستورية تعبير ليس عن وعي قومي، ولكن عن كوسموبوليتية جذرية لا يمكنها أن تؤسس إلا لهوية سياسية مجردة". (رح، 2011: 148).

خاتمة:

وفي الأخير يمكن القول أن عمل هابرماس فيما يخص الجانب الإنساني في مختلف جوانبه يبقى في نهاية الأمر عمل فريد من نوعه، في الدفاع عن القيم الإنسانية من أجل إرساء الشروط الضرورية لعيش السلم بين أفراد المجتمع، وذلك من خلال الفعل التواصلي الذي أعطاه هابرماس مكانة جوهرية في فلسفته عموماً، والتي ستخرج الإنسان من حيز الذاتية إلى متسع الإنسانية، هذا النموذج للتواصل الذي يجمع بين الفاعلية النقاشية والحجاج من أجل خلق خطاب شفاف، غايته التوصل إلى حلول تخرج المجتمع من بؤرة العنف الأخرس الذي يحتاج العالم ويقضي على إنسانية الإنسان.

كما نجد هذا النموذج التواصلي يجب أن يحدث داخل المجال العام، والذي يشارك فيه أفراد متساوين في الدرجة ويشاركون طواعية، هكذا يحافظ على بناءه في التداول الذي يتيح النقاش والجدل، ومن ثم التشاور حيث يغدو معه الفعل التواصلي ذا بعد إنساني حين يرتفع من القومية العرقية والثقافية إلى المواطنة الكونية.

إلا أن قراءة هابرماس من زاوية أخرى تجعلنا نقول أن فلسفة هابرماس، أي نظرية الفعل التواصلي ما هي إلا إرادة توبة، ومحاولة منه لإدماج المجتمع اليهودي في الدولة الألمانية من جديد، وتخليصهم من الاضطهاد الذي عانوا منه كثير نتيجة الحكم النازي في ألمانيا، وبالتالي فإن الدافع لفلسفة هابرماس كان دافع ذاتي ولم يكن دافع إنساني كما هو شائع على الأقل إلا حد الآن، وبالتالي تخرج فلسفته من البعد الإنساني إلى البعد القومي والعنصري من جديد.

لكن رغم المؤاخذات التي نؤخذها على فلسفة هابرماس، تبقى في الأخير من أهم الفلسفات في العصر المعاصر التي حاولت تجاوز العنف الأخرس الذي تعاني منه المجتمعات المعاصرة، وخاصة التوتر بين قوى العلمانية والطائفية الدينية، بل إن لم نجافي الصواب يمكن القول أن هابرماس يعتبر أهم فيلسوف في الفترة المعاصرة على الإطلاق إذا استثنينا نتشة بل وقد يفوق هيدغر وسارتر معاً، إن فلسفته أشبه بالطبخة الجميلة الشكل التي لم يتذوق طعمها بعد.

والأهم من هذا كله هل يستطيع المجتمع العربي أن يحدث التواصل بين أشلائه الممزقة التي تنهشها الأزمات والعنف من كل مكان؟ وهل يستطيع الفرد العربي أن يطبق هذه الفلسفة؟ ويحقق أهدافها؟ إنها أسئلة لن تجيب عنها إلا الأيام القادمة.

قائمة المصادر والمراجع

- آتو أبل، كارل. (ط1)، (2005): التفكير مع هابرماس ضد هابرماس. ترجمة عمر مهيبيل، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون والمركز الثقافي العربي، الجزائر: منشورات الاختلاف.
- ريح، عبد العزيز. (2011). ما بعد الدولة - الأمة عند يورغن هابرماس، الجزائر: منشورات الاختلاف.
- علوش، نور الدين. (2013): المدرسة الألمانية النقدية نماذج مختارة من الجيل الأول إلى الجيل الثالث، بيروت: دار الفارابي.
- فيري، جان مارك. (2006). فلسفة التواصل، ترجمة عمر مهيبيل، بيروت: الدار العربية للعلوم، الجزائر: منشورات الاختلاف.
- فينليسون، جيمس جوردن. (ط1)، (2010): هابرماس مقدمة قصير جدا. تر. أحمد محمد الروبي، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- مقورة، جلول. (2013): النشاط الديمقراطي في خدمة الفاعلية التواصلية، مجلة الحكمة العدد 16، الجزائر: مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع.
- مهيبيل، عمر. (2005): إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون والمركز الثقافي العربي، الجزائر: منشورات الاختلاف.
- هابرماس، يورغن. (1995): القول الفلسفي للحداثة، تر. فاطمة الجيوشي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية.
- هابرماس، يورغن. (2006): مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، تر. جورج كتورة، بيروت: المكتبة الشرقية.
- هابرماس، يورغن. راستنغر، جوزيف، (2013): جدلية العلنية العقل والدين، تر. محمد لشهب، بيروت: جداول للنشر والتوزيع.
- هابرماس، يورغن. (2010): إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة. ترجمة عمر مهيبيل، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، والجزائر: منشورات الاختلاف.
- هوركهائمر، أدورنو. (2006): جدل التنوير. ترجمة جورج كتورة، بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة.